

## عارف العارف أباً

مجلة التراث والمجتمع العدد 41 - فريدة العدد - 2006/02/20 - م 10:30 ص



إرسال النقود إليه فقد اشتغل في الصحافة ليلاً ليتمكن من تحصيل نفقات دراسته ، واشترك في تحرير جريدة (بيام) التركية .

ومن أهم الأحداث التي كنا نحب الاستماع إليها ونعتبرها حدثاً مهماً ومغامرة رائعة تلك الفترة التي نشيت فيها الحرب العالمية الأولى سنة 1914 إذ كان قد ادخل هو وكل خريجي الجامعة إلى الكلية العسكرية ليتدربوا على القتال إلى جانب القوات التركية. وبالفعل شاركوا بالقتال. وقد تم أسره عندما كان يحارب الروس مع الجانب التركي في جبهة القفقاس، وكيف أبيت الكتيبة التركية التي كان يعمل في صفوفها، ولم ينج سوى أحد عشر شخصاً ، كان والذي أحدهم، فأسره الروس وأرسلوه إلى سيبيريا إلى معسكر للاعتقال سنة 1915 حيث قضى ثلاث سنوات أسيراً على مقربة من مدينة (فرانسويارك) على شاطئ نهر (بني ساي) وكان ذلك من سنة 1915 - 1917. كنا نحب الاستماع إليه وهو يحدثنا عن الفترة التي قضاها في سيبيريا، عن البرد القارس والتلوج، عن الثورة الروسية التي حصلت أثناء وجوده في المعتقل، وكذلك عن مقتل القيصر وعائلته في مكان قريب جداً من مكان الاعتقال. كان يحدثنا كيف تعلم اللغة الألمانية والروسية أثناء وجوده في الأسر، حيث كان يعلم زملاءه في الأسر اللغة العربية والتركية وتعلم منهم اللغات الألمانية والروسية. وهناك اكتشف ميله لتعلم اللغات، فتعلم فيما بعد الإنجليزية والفرنسية والعبرية، فأصبح يتقن ست لغات وقد تمكن من أن يترجم الكتاب المعروف DasWell - Raetze لمؤلفه Earnest Haeckel كما أصدر وهو في الأسر جريدة هزلية أسماها "ثاقه الله" - كانت تنقل أخبار المعتقلين العرب وتنتشر أخبار الجزيرة العربية. كان يحدثنا عن فرحته هو وبقيه الأسرى العرب عندما أُنْتَهَم أبناء الثورة العربية التي أعلنها شريف مكة الملك حسين ضد الأتراك ، وقد تمكن من الهرب ومعه 21 عربياً عن طريق منشوريا، اليابان ، الصين ، الهند ، البحر الأحمر .

عاد والدي إلى القدس بعد غياب دام سبع سنوات ، فذهب لتوه إلى دكان جدي في البلدة القديمة، فوجده يحادث رجلاً ويعبر له عن قلقه الشديد لعدم سماعه أي أنباء من ابنه "عارف" أي والدي . فأخذ يستمع إلى الحوار وهو يخشى أن يفصح عن نفسه خوفاً على جدي الذي كبر وأصبح ضعيفاً، وعندها التفت الرجل إلى الوراء وصاح : " ها هو ابنك يا حاح ! " وكان لقاء حاراً بعد



طول غياب بينه وبين جميع أفراد عائلته التي كان يعبر دائماً عن حبه واحترامه لها ، وإنني لا أنكر عيداً قضيناه في طفولتي وقبل أن أتزوج وقبل أن تتفرق عائلتنا كغيرها من العائلات الفلسطينية التي تفرقت بسبب الحرب أو التهجير عام 1948 دون أن تجتمع العائلة على مائدة الغداء في بيتنا حيث كان يقدم للجميع طعام العيد التقليدي: الخروف المحشي والكنافة . وكان يشعر بسعادة حقيقية وهو يرى الجميع ملتفين حوله .

كان يقرأ لنا أحياناً صفحات من يومياته التي دأب على تسجيلها يوماً بيوم منذ وجوده في الأسر في سيبيريا واستمر في كتابتها إلى يوم وفاته ، أي على مدى ستين عاماً دون انقطاع . فقد كانت يومياته سجلاً حافلاً بالأحداث العالمية والعربية والخاصة. وقد قرأ لنا مراراً عديدة ما كتبه عن خيبة أمه عندما لم تستقل البلاد العربية بعد الحرب العالمية الأولى. وعن المرارة التي شعر بها عندما جاءت بريطانيا بجيوشها إلى فلسطين ثم انكسرت عليها، وعن الخطر الكامن وراء وعد بلفور من أجل إقامة وطن قومي لليهود في بلادنا، وكيف تأمرت بريطانيا وفتحت أبواب الهجرة أمام اليهود القادمين من أوروبا، وكيف كان يؤمن بضرورة العمل ضد الانتداب البريطاني وضد إقامة وطن قومي لليهود على الأرض الفلسطينية ، فأصدر مع صديقه المحامي حسن البديري جريدة أسماها " سوريا الجنوبية " كانت تعتبر أول جريدة رفعت علم الجهاد في مدينة القدس ضد بريطانيا وضد المخططات الصهيونية . وتعرض والدي وزميله حسن البديري للسجن والتعذيب على أثر قتال حدث بين العرب واليهود في 1920/4/4 حيث اعتبره الإنجليز أحد المحرضين فسجنوه ، ولكنه تمكن من الهرب بعد ثلاثة أيام عبر البحر الميت إلى الكرك في شرق الأردن ، ومن هناك سافر إلى الشام ، وفي الشام انتخب ممثلاً عن القدس في المؤتمر السوري، الذي نادى حينئذ بفصل ملكاً على سوريا وأعلن استقلالها من طورس إلى رفح.

وفي تلك الفترة أصدرت الحكومة البريطانية حكمها بإعدام والدي ثم خفض الحكم إلى عشر سنوات. وبقي في سوريا يعمل بحرية من أجل وطنه. وقد أسس هو ونفر من الفلسطينيين جمعية أسماها " الجمعية العربية الفلسطينية " إلى أن احتل الفرنسيون الشام بقيادة الجنرال غورو، فعاد والدي إلى شرق الأردن وبقي فيها إلى أن سمع بصدر العفو عنه ، فرجع إلى فلسطين .

وفي فلسطين تقلد عدة وظائف منها قائم مقام في بئر السبع وغزة. وقد اغتتم فرصة وجوده هناك ليؤلف ويسجل تاريخ وعادات هذه المدن وأهلها ، فكتب أثناء وجوده في بئر السبع عام 1933 كتاب القضاء بين البدو وكتاب تاريخ بئر السبع وقبائلها ثم تاريخ غزة وكتاب الموجز في تاريخ عسقلان وكتاب رؤياي ويظهر في هذه المؤلفات مدى اهتمامه بالحفاظ على تراثنا الشعبي الفلسطيني في شتى جوانبه حيث يقول في مقدمة كتابه القضاء بين البدو:

" فإذا كنت قد أصبت المرمى ، وتمكنت من تقديم أثر نافع لأمتي وبلادتي فتلك هي أمنيتي ، وإلا فلن أندم على ما بذلت في سبيل عملي هذا من جهود ، وما حملت لأجله بين أضلعي من آمال " .

وفي عام 1948 حلت النكبة الفلسطينية، فلهتم بتسجيل الأحداث والمعارك والقرارات. فسافر إلى الدول العربية (مصر، العراق، سوريا لبنان والأردن) واجتمع مع الرؤساء والقادة العسكريين وتمكن من جمع وتسجيل أحداث تلك الفترة في سبعة أجزاء أسماها " نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود " .



وفي الانتخابات البلدية التي جرت بعد ذلك سنة 1951 حاز على أغلبية الأصوات وأصبح رئيساً لبلدية القدس وانتخب رئيساً للبلدية للمرة الثانية. وفي عام 1955 خاض الانتخابات الثالثة حيث أعيد انتخابه من قبل الشعب وتسلم رئاسة بلدية القدس للمرة الثالثة وفي تلك الفترة أتم العديد من مؤلفاته ومنها:

الموجز في تاريخ القدس والحرم القدسي، المسيحية في القدس، تاريخ قبة الصخرة والمسجد الأقصى، المفصل في تاريخ

القدس و The Dome of the Rock .

والشيء الذي سأنقله إلى أولادي عن جدهم المرحوم، والذي هو حبه لمدينة القدس واعتزازه بالانتماء إلى هذا البلد العريق بتاريخه والغني بتراته. فقد كان يبرهن بالحديث عن القدس وأهميتها وتاريخها الحافل. كان يحب أن يمشي في شوارعها وأزقتها. كان يأخذنا إلى ساحة الحرم القدسي ويشرح لنا تاريخه ويمجد العرب الذين بنوه. وكيف غضب واستاء عندما سمع أحد أدلاء السياح يقول لهم أن هذا المكان بناه الجان، فصاح به: مهلك يا هذا، إن هذا المكان الرائع ليس من عمل الجان وإنما من عمل أجدادك الأمويين، فالأولى بك أن تعتر وتفخر بهم وتذكر ذلك أمام زوار بلدك من الغرباء! وكان ذلك دافعاً لتأسيس أول عهد لتطوير أدلاء السياحة بحيث أصبح من غير الممكن لأي دليل أن يمارس مهنته إلا بعد تخرجه من المعهد. وكم من مرة ذهبنا بصحبته إلى صلاة عيدي الفطر والأضحى وليلة القدر وإلى احتفالات سبت النور أو احتفالات أعياد الميلاد في كنيسة المهد، إذ كان يريد أن يعمق ارتباطنا وإحساسنا بتراث فلسطين والقدس التاريخي والسياسي والديني الغني فنحسب فلسطين ونحب القدس كما أحبهما، ولا زلت أذكر ردة فعله الغاضبة عام 1968 عندما وصلتته دعوة لحضور حفل استقبال من رئيس بلدية القدس - تيدي كوليك - بمناسبة توحيد شطري القدس، فقد أجابه قائلاً " أعتذر عن تلبية دعوة من يحتل مكاني، ويمثل الدولة التي اغتصبت أراضي وبلدي، وسأعيد النظر في قراري عندما تتسحبون وتعتزفون بحقوقنا على أرضنا وتعود القدس عاصمة دولتنا الفلسطينية المستقلة".

ولعل أكثر ما يشد انتباه أي مطلع على أفكار وقناعات والذي إيمانه واهتمامه بالأمر التالي :

- إيمانه بالعروبة والإسلام، إذ كان يرى في وحدتهم السد المنيع الذي سيقف حائلاً أمام جيروت الغرب وطغيان الصهيونية .

- إيمانه بمنظمة التحرير الفلسطينية، إذ كان يرى فيها الأمل في إنقاذ فلسطين خصوصاً إذا سارت على طريق الصواب وعلى درب التحرير الحقيقية.

- حبه الشديد لمدينة القدس وقلقه عليها، إذ كان واعياً لخطورة التغلغل الصهيوني في فلسطين وما يتهدد القدس من مخاطر .

- إيمانه بضرورة تعليم المرأة وإزالة أي عقبة تقف في طريق ترقمها وتطورها لما لها من تأثير على المجتمع وعلى الأسرة بشكل خاص، كان إرسالنا أنا وأخواتي إلى المدارس خير دليل على ذلك .

وكان هذا ظاهراً تماماً في دعمه لجمعية إنعاش الأسرة وللأخت المناضلة المرحومة سميحة خليل ولجميع المناضلات وأيضاً في طريفته في التعامل معنا ومع والديني. لقد كانت علاقته بوالديني تقوم على الاحترام والحب المتبادل، وكانت ترافقه



في جميع رحلاته، ويستشيرها في أي مسألة تخص الأولاد أو العائلة. وقد شاركته حياته بملوها ومرها طيلة خمسة وخمسين عاماً عاشوها معاً. كان يقدر تضحيتها براحتها من أجل أن تهيء له سبل الراحة ليتمكن من إتمام رسالته في التأليف وتسجيل الأحداث المهمة في كتبه ويوميته، وكان يردد دائماً بأنه لولا هذه السيدة الفاضلة التي تحملتني وتحملت عملي وسهر الليالي، لما تمكنت من إنجاز ما أنجزت .

وقد أصيب بصدمة عنيفة عندما أراد أن يزور بيتاً لنا في القدس الغربية (البقعة) الذي كان قد اشتراه عام 1947 وكان يأمل أن يقضي فيه بقية حياته ، فجاءت الحرب ولم يتمكن من سكناه بسببها واحتلته أسرة إسرائيلية . وفي أعقاب حرب 1967 ذهب لزيارته ولكن السيدة الإسرائيلية التي كانت تقيم في البيت وطردته ورفضت أن تسمح له بالدخول وقالت له "اذهب لا أريد أن أراك ، فأنت الآن لا تملك شيئاً ، هذا أصبح بيتي ولو أتيت بتصريح من جولدا مئير فلن أسمح لك برؤيته "

أصيب على أثر هذه الحادثة بجلطة دموية أخذت تضعف قلبه شيئاً فشيئاً إلى أن توفاه الله في 1973/7/30 عن واحد وثمانين عاماً، قضاها وهو يمتنى أن يرى وحدة عربية تحقق نصراً يعيد الحق إلى نصابه لتعود فلسطين عربية كما كانت.